

أيَ وَسْطِيَّةٍ تَعْنِي؟!
الكاتب : سلمان العودة
التاريخ : مايو ٢٠١٥ م
المشاهدات : 1120

قال لي صاحبي: ألا ترى صراع الوسطيّات فيما بينها، وتنافسها على حيازة هذا اللقب؛ الذي أصبحتم ترددونه دون تحديد معناه؟

بلى يا صاحبي إنني أرى ما ترى، ولكنني أرى الصراع على كل المعاني والألقاب الشريفة، والأصل أن الميدان يتسع لكل مجتهد محاول، بعيداً عن الادّعاء الذي لا دليل عليه.

لم ترد الوسطيّة لتكون معياراً محدداً فاصلاً، بل هي سمة عامة لا يمكن معرفتها إلا بالاستعانة بنصوص أخرى، كالصراط المستقيم الذي هو من أقرب الألفاظ إليها.

وإذا كان الصراط الأخرى دقيقاً كحدّ السيف، فالصراط الدنيوي أوسع مما بين السماء والأرض، كما قال جابر -رضي الله عنه-، وهو أن تفعل واجب الوقت الذي أمرت به، وتترك منهي الوقت؛ كما يقول ابن تيمية.

ولذا عرفه الله بأنه: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وهو تعريف ذاتي سابق لكونه مخالفاً لصراط المغضوب عليهم والضالين، والذي يحدد الوسطية بمقابلاتها..

ولذا ينبغي أن تكون الوسطيّة وعاءً جامعاً يستوعب الكثير من الجهود والآراء والمجموعات والتيارات والاتجاهات، ولا يقتصر على نمط واحد أو جماعة بعينها أو مدرسة خاصة أو جهة رسمية أو شعبية محددة.

من الوسطيّة مراعاة العدل والاعتدال في الحكم على الناس والأعمال والأقوال، وفي تحديد المسؤوليات، وفي حفظ الحقوق؛ عدل الحاكم، وعدل العالم، وعدل الإعلامي، وعدل المعلّق..

من الوسطيّة اعتدال الطموحات والأحلام والتطلّعات والتوقعات والحكمة والبصيرة، واستبطان التجربة الإنسانية، والنظر للمستقبل بتوازن باعتباره جزءاً من السياق البشري المتصل.. فنحن كثيراً ما نُركّل حلول الحاضر للمستقبل دون أن يكون لدينا أسباب كافية للتغيير.

وإذا كنا عاجزين عن تغيير الحاضر فما الذي يجعلنا نعوّل على المستقبل دون أن يوجد سبب لذلك؟

يا صاحبي.. إذا كان الله اختارنا لنكون شهداء على الناس فيجب أن نكون شهداء على أنفسنا أولاً **{وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ}** {١٣٥: النساء}، وهذا يعني أن الوسطيّة حركة لا تتوقف نحو النضوج، والتصويب، والإصلاح الذاتي.. **{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}** {١٤: طه}، وحين أفدّم نفسي على أنني أنموذج الوسطيّة الذي يدب على وجه الأرض؛ كفرد أو هيئة أو جماعة أو دولة أو مجتمع، فلن أنسامي ولن أتعافى ولن أتزود علماً ولا خُلقاً ولا استقامة، وسوف أنظر لنفسي على أنني المعيار الذي يُقاس به قرب الآخرين أو بُعدهم عن الحق!

وكفى بهذا غروراً وعزوفاً عن مراقبة النفس ومحاسبتها!

والأولى بي أن أوفر جزءاً من جهدي للحكم على نفسي وتقويمها، وقياس قربها أو بُعدها عن الصراط المستقيم، والإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره!

الْوَسْطِيَّةُ: نفسية متوازنة متصالحة مع نفسها ومع الناس لا تتعسف ولا تتكلف ..

الْوَسْطِيَّةُ: ضربٌ من الفهم المقاصدي الرشيد، يستهدي به السَّارِي في التَّرجيح بين الاختيارات والتماس ما هو أقرب لمراد الله وأليق بمقاصد الشريعة.

الْوَسْطِيَّةُ: محاولة للتوازن بين المتقابلات، التوازن بين الحقوق والواجبات، وبين الدنيا والآخرة، وبين الشُّدَّة واللين، وبين الفردية والجماعية، وبين الزهد في الدنيا والاستمتاع بطيباتها ..

وهي حضور إنساني يُقدِّم أنموذجاً بشرياً؛ يجمع بين المادة والروح، ويُشكِّل مرحلة النضج للسلالة الآدمية، أفلحت الأمة في تمثيله تاريخياً وأخفقت اليوم؛ لأنها تمر بمرحلة سبات، وضعف، وتراجع، وشتات، وهزيمة ..

الأمة الخاتمة شاهدة لأنها متصلة بوحى السماء، وشاهدة على الفصل الأخير من حياة البشر وما فيه من كشوف ومعارف وفتوح هائلة في ميادين العلم والتجربة، وهذا تكليف يقتضي أن تحاول فهم عصرها بجدارة، وثقة، وطمأنينة، وتمييز غثه من سمينه ..

أن نكون أمة وسطاً شهداء على الناس يعني أن نملك هوية إسلامية واضحة نعتز بها، ولا نتردد أو نخجل أو نماري أو نداري في جوهرها ورسالتها ..

وهو مكمل لكوننا جزءاً من الناس؛ الذين خلقوا من ذكرٍ وأنثى، وجُعِلوا شعوباً وقبائل؛ ليتعارفوا ..

فالهوية منصة انطلاق وحراك وتأثير عالمي، وليست سجنًا نغلقه على أنفسنا ونمتنع به عن الشهود والتواصل والتعارف مع شركائنا في الحياة من البشر، بل ومن سائر المخلوقات الأخرى من شركائنا في الأرواح، أو شركائنا في الخلق والعبودية.

لست أنكر أن في أجيالنا غلاة تجاوزوا الاعتدال، وارتكبوا الأفعال الشنيعة المسيئة لدينهم وأمتهم، ولكن هذه الأفعال محل رفض واستنكار من علماء الأمة ومصلحيها، فلماذا يحاول البعض إلصاقها بالأمة وكأن وزرها يطال الجميع، بينما يقع التطرف من مسيحي أو بوذي أو يهودي فيُنسب الفعل إليه بذاته، ولا يكون مهماً لدى وسائل الإعلام تحديد هويته أو دينه، ويتم تحييد انتمائه لدين أو جنس؟!

أليس محزناً أن تكون بعض الدوائر تحارب التطرف علانية وتغذيه سراً؛ لأنها توظف ما تسميه بحرب الإرهاب لمصالحها وتحاول أن تكسب به تعاطف الشرق أو الغرب ليغض الطرف عن عدوانها على شعوبها؛ كما يجري في سوريا المنكوبة مثلاً؟

أخيراً.. فالْوَسْطِيَّةُ) يا صاحبي ليست إملاءً من مراكز غربية؛ تدَّعي أنها تحدد لنا معنى الاعتدال الإسلامي وهي تُفصِّل المعايير حسب مصالحها السياسية وولاءاتها، وكثيراً ما تُقدِّم العلمانية المتطرفة المناهضة للدين على أنها الوسط، وهي تعلم أنها مقطوعة الجذور عن الشعوب الإسلامية عاجزة عن التأثير، وأنها لذلك لا تجد حرجاً في الاصطاف مع الظالمين؛ القتلة المدمِّرين لشعوبهم وأوطانهم.

